

١٣ - بين القاهرة وطوس

من سلطان آباد إلى بغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

سلطان آباد حاضرة ولاية في إيران تسمى العراق ، وهي في الجنوب الغربي من سهل فراهان ، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجي وجعلها مربعة الشكل ، وسورها وحصنها . وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع ، فيها زهاء ٦٨٠ قرية ، وسجاجيدها مشهورة

وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج ، في الأقليم الذي كان يعرف باسم كرج أبي دلف ، وقد ذكره الشعراء في مدائحهم

دخلنا المدينة ليلاً فسرنا قليلاً فأنهينا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لاصلاح المدن الإيرانية في السنوات الأخيرة

وقف بنا السائق على فندق (مهما نخانه) في هذا الميدان فدخلنا إلى فناء واسع للسيارات وصعدنا في سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة ، فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ، ليس في المدينة سواها . فالتحنا حجرة لا بأس بها في مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلاً ثم خرجنا نجول في البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ، ورأينا المدينة على صفرها وسداجتها نظيفة جميلة

وبرحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همدان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لتدرك قافلة السيارات التي تبحرنا إلى دمشق صباح الخميس . بلغنا فجر آباد والساعة تسع . وقد استلقتنا كثرة الممران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنه معروفة بمجودة عملها فأكلنا ونحن نقول إن لله دواء من العسل (مستعدين من المثل القديم : إن لله جنوداً منها العسل) . ثم وقفنا على ملاير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد ١٠٠ كيلو

وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همدان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا في شارعها الكبير وجدونا العهد بمردة الفيلسوف ابن سينا ، ثم أوبنا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ، والأرمن في إيران قومة الفنادق ، تلقاهم في كل مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمينياً

وأعجلنا السفر عن الإقامة في همدان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت في كرمانشاهان ، ونحن الآن على طريقنا التي سلكتها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا . لما شرعنا نقرع الجبال جنوب همدان أصاب مصدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسي « عيد الفردوسي » وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر في حفلات الفردوسي ، فوقفنا وبحث السائق فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس ، كما يأتي . واجترينا جبال أسد آباد وبلغنا كنگادر والساعة خمس وربع من المساء ، وقد ذكرت هذه البلدة في طريقنا إلى طهران . أزيد هنا أننا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاي وأكلنا البطيخ ، وهو في إيران كثير لا يمدمه السائر حيثما سار ، وخرجنا نمشي على الطريق نتنظر أن يعد السائق سيارته فاذا جماعة جالسون في عريش على جانب الجادة ، فتقدم كبيرهم خيافاً وقال إن في البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟ . وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد فسرنا لنرى الآثار ومحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين فرأينا بلداً صغيراً فقيراً في وسطه أحجار ضخام وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور ، فقيل هذا أثر معبد قديم . واخترقنا بعض الدور وسرنا بضعة دقائق فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه . وكان معبداً للآلهة (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء بناء لها الاشكانيون ، وكان أيام الفتح العربي مأوى للصوفى وقطاع الطريق فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص

قال ياقوت في المعجم : « قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همدان فنزلوا كنكوار فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص وبقي اسمه إلى الآن ... » وقال مسمر بن مهمل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً . وذلك أنه على دكة من حجر ارتفعها عن وجه

الكبير . وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن منا سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ريثما يصلح سيارته . ثم انصرف وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبتا نمشي في المدينة ، ثم ذهبنا إلى دار البريد فأرقدنا إلى وزير المعارف لنشكر له ما لقينا من حفاوة قبل أن نجتاز حدود إيران . ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق ، وذهبتا نفتش عنه في الحانات حتى عثرنا عليه مُكباً هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر . فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجدنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل ، فزلنا في فندق صغير فاسترحنا وطعمنا ، ونشط أصحاب الفندق من الأرمن في خدمتنا فاستأقنا السير بعد ساعة ومررنا بكربد وكده باطاق ، وسريل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود العراق

دخلنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس فلقينا الموظفين مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل فسرنا إلى خانقين فمرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأماننا صحراء مشبهة الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بمقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا على متدى في الطريق ، ونزلنا فاذا صورة أم كلثوم في صدر المكان . ولما عرف صاحب المتدى أننا مصريون أسرع فأسمعنا غناءها . فشرنا ونحن في العراق أن مصر قريب

ثم سرنا من بمقوبة فأدركنا شاب ينادى أن الطريق غير بينة فاحملوني لأدلكم . قلنا لا حاجة إليك . وأدركنا فارساني من المسس فقالا أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم . فغير لكم أن تبيتوا هنا ، وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً . وهذا الشاب إن حملتموه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق . فأقسم الشاب أنه بها جد خبير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين . فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان في السيارة فركب على الرُفرف

الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إبنانات وجواسق وخزائن تتحير في بنائه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل لبروز ومسكنه ومتنزهه لكثرة سيده وعدوية مائه ، وحسن مروجيه وصحاريه »

تركنا كسكاور والساعة ست ، فلما فارقدنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشمته ، فسرنا في جبال وسهول حتى أشراف على الجادة جبل بيستون الشاهق وقد ذكرته من قبل ودكرت قصة فرهاد وشيرين التي لا يزال صدها طائر آفي أرجائه ولما لاحت ذروة الجبل في ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :

لعل شيرين نصيب خسرو شد سنجك يهوده بي كند فرهاد
« صار لعل شيرين نصيب خسرو ، وعبثاً يقطع فرهاد الحجر » فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم گرفت بارانم
أ اگر غلط نكنم آب چشم فرهادست
« لما بلغت بيستون تساقط على المطر ، فان صدق ظني فتلک دموع فرهاد . » ثم قال السائق أتعرف قصة شيرين وفرهاد ؟ فأجبت أن أسمعهما منه ، فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبروز فرأى يوماً شيرين امرأة بروز فهام بها حباً . وكان يظنها إحدى إماء الملك . ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد إن شئت أن أمتحك شيرين فأنحت في الجبل قناة يسيل فيها اللبن من المرعى إلى القصر ، فشق في الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد بقی أن تبني لي قصرًا عظيمًا . فنحت الأحجار وبنى القصر . فلما خشي الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لشيريه كيف الخلاص من فرهاد ؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائمة لاطمة . قال : ما خطبك ؟ قالت : ماتت شيرين . ففشي عليه ومات لساعته ، وخلصت شيرين لبروز . »

والقصة ذائعة في الأدب الفارسي ، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات . فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد في هذا الجبل ؟ قال إنه عال ، ولا يرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همدان ١٩٠ كيلاً . وأوينا إلى فندق اسمه « مهمانخانه بزرگ » أي الفندق